# حركة إحياء النموذج في الشعر المغاربي: توطين للغة وتمكين للنهضة الفكرية والأدبية

د.لعور كمال
جامعة الشلف

**الملخص:** ظل الشعر المغاربي" الجزائري، التونسي، المغربي" في حكم المجهول بما رسخته من جانب كتابات المشارقة ومواقفهم المنطلقة من نزعة مركزية تجاه شعر المغاربة، ومن جانب آخر جراء النزعة الفرنكفونية التي عمدت كتابات الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية دون غيرها بمعين التحديث، والقدرة على الاتصال بقضايا المجتمع، وأهملت الأدب العربي المغاربي منذ نهاية القرن التاسع عشر تعمدا و احتقار له، وفي سياق آخر غفل الدارسون اليوم عن الشعر المغاربي المحافظ والبعثي لمجرد ارتباطه بحركة الاصلاح والجانب الديني فعدوه نصوصا ميتة تقليدية، فقتلوا ما فيها من مضمون وقيم؛ فيحار اليوم من يريد دراسة هذه الحقبة من تاريخ الأدب المغربي اذ لا تسعفه المصادر والمراجع العصرية، وان طلب الأدب المغاربي القديم وجد كتبا زاخرة حاضرة، ويستدعي الأمر اليوم نفض الغبار عن هذه الحقبة والتنقيب عن شعرها، وجعله محطا للدراسة والمتابعة، وربطه بحركة الاحياء المشرقية.

**الكلمات المفتاحية** : حركة الإحياء ؛ الشعر المغربي ؛ النهضة ؛ الاستعمار ؛ الشعر التونسي.

**Abstract:** Maghreb poetry remained in the unknown because of the writings of the East and their positions based on a central tendency towards the poetry of the Arab Maghreb, and on the other hand because of the Francophonie tendency, which deliberately writings of the Maghreb literature written in French only with a certain modernization, and the ability to communicate with community issues.

In another context, researchers today overlooked the conservative Maghreb poetry simply because of its association with the reform movement and the religious side.

Today, those who want to study this era of the history of the Maghreb literature are not puzzled by modern sources and references.Although the request of ancient Maghreb literature has found rich books present, it is necessary today to dust this period and explore its poetry, and make it a place of study and follow-up, and link it to the oriental neighborhood movement.

**Keywords:** Moroccan Poetry; Renaissance; Colonialism; Tunisian Poetry.

- **تمهيد** :

ورث الأدب المغربي عن العصور الخوالي نصوصا مشبعة بالتصنع والتزلف، ولم يكن الشعر غاية كما يتصورها اليوم عامة الناس، بل كان ميدانا للتباري في اللغة ومقياسا لدرجة الحرارة الدينية والظروف نفسها التي عاشها الأدب في ظل الدولة العثمانية مشرقيا كابدها المغرب كذلك. لكنه عاد في مقتبل النهضة العربية الحديثة قويا صلدا متينا في تركيبه وموصلا بالتراث الشعري العربي الأصيل، فكيف استعاد الشعر المغاربي ألقه بظهور حركة الاحياء بهذه الأقطار الثلاث" الجزائر، المغرب، تونس"، وقد سبق لبعض المراجع أن خاضت في هذا الموضوع نذكر على سبيل المثال ما قدمه يوسف ناوري في كتابه الريادي الشعر الحديث في المغرب العربي في جزأين الى جانب كتب أخرى اعتنت بالظاهرة في كل قطر على انفراد مثل كتاب محمد ناصر تحت عنوان الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، 1925.1975، ومحمد بن عباس القباج: الأدب العربي في المغرب الأقصى، وقد استكشفنا من خلال هذه المصادر وغيرها ومن خلال التفرس

في أشعار الحقبة المحددة غنى هذه الفترة بالشعر وافتقاره للدراسة والتحليل لأن الباحثين يكتفون في هذا الصدد بالإشارة والتنويه، والتمثيل.

**1-الأدب المغربي من التقليد إلى الإحياء:**

لم يكن الأدب العربي في القرن التاسع عشر وما قبله ذا قيمة فنية فهو ملحق بالفقه والمدائح النبوية والشاعر في كل ذلك مداح مرتزق، فالشعر المغربي حسب أحمد الطريسي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان وسيلة لا غاية "مجرد أداة للعلوم الفقهية و اللغوية ووسيلة لحفظ الشواهد في معرض علم النحو والبلاغة ورواية المثل السائر، إنه مجرد مطية يركبها الناس للوصول إلى تولية بعض المناصب القضائية والإدارية"[1] كان وسيلة لقرض اللسان ومعاونته على التصرف في فن الكلام فخضعوا إلى للمناسبات يتنسمون شعر المديح النبوي أو يتقربون به إلى الملوك والأمراء والوزراء وفي كليهما هناك تقليد أعمى أخرس.

صحيح أن هذه الفترة عرفت شعراء كثر وأسماء متعددة ولا يغني الشعر كثرة الألقاب والأسماء.

يقول عبد الله كنون:"حالة المغرب العامة أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم تكن لتخلق جوا أدبيا[2] فشاع تمثل الماضي في المادة الشعرية، وفي القالب و المعنى والأسلوب.

والحالة هذه قاسم مشترك بين تونس والمغرب الأقصى والجزائر، فهي كثيرا ما كانت تلقى المصائب ذاتها ويتشابه وضعها إلى حد التطابق أليست قطرا واحدا؟ فقد أشار الباحث الجزائري الركيبي أن الأدب في العهد السابق على الغزو كان يعيش على بقايا قشور الثقافة العربية ويعنى بمظهرها لا بلبابها، وأن التكلف كان السمة الغالبة في الأسلوب والتقليد في الموضوعات التي عرفت في الأدب العربي وفي عصور الانحطاط على الخصوص، أما بعد الغزو فكادت تطمس هذه المعالم وتندثر حتى بقايا هذه القشور لولا بعض النماذج التي تركها لنا تاريخ الأدب في هذه الفترة، والتي سجلت فداحة ما أصاب الأدب من تدهور من جهة، ومن تقليد للعصور السابقة من جهة أخرى.[3]

وجماع ما خيم على الشعر المغربي في القرن التاسع عشر اتجاهان هرمان الاتجاه الديني وموضوعه القصائد النبوية في مدح الرسول الكريم، وأولي الأمر من آله الأشراف ويتضمن التعبير عن الرغبة الملحة في أداء فريضة الحج، ووصف البقاع المقدسة مع ذكر الحكم والأمثال[4]، ويتمثل غرضه في الوعظ وحث الناس على الإخلاص في الأعمال والتخلص من الأوزار، وقهر العدو والاتجاه الدنيوي منه شعر الإخوانيات إلى شعر النقد الإجتماعي.

ومن هذه الأشعار ما قاله العربي بن محمد السايح[5] الذي تناول الضجة التي أثارها دخول الشاي إلى المغرب وانقسام الفقهاء إلى محلل ومحرم:

واصل شراب حليفة الأمجـــــاد

واترك مقال أخنى هوى وعنـــــاد

صفراء تسطع في الكؤوس كأنها

شمس تبدت في ذرى الأطـــواد

وكأنها من حسنها وصفائهـــــــا  من عسجد عصرت بأعصر عاد

ما إن بدت في موضع إلا بـــدا

فيه السرور يناط بالإسعـــــاد

وما إن يحل الاستعمار على أرض الجزائر حتى يتحرك الشعر قليلا فيتجدد ثوبه وتعلوه نزعة وطنية تارة مع أشعار الأمير الحماسية الفخرية، ونزعة قومية في مهدها الأولي إذا ألم خطب ببلاد عربية مجاورة، ومن ذلك أشعاربعض الشعراء المغاربة المتعاطفين كحال محمد بن إدريس العمرواي والوزير محمد غريط اللذان حرضا على مواجهة الاستعمار الفرنسي حين غزا بلاد الجزائر

يقول العمراوي[6]:

يا أهل مغربنا حق النفير لكـــم

إلى الجهاد فما من الحق من غلط

فالشرك من جانب الشرق جاوركم

من بعد ما سام أهل الدين بالشطط

فلا يغرنكم من لين جانبـــــه

ما عاد قبل على الإسلام بالسخط

وله أيضا منظومة شعرية تجاوزت مئتي بيت يدعو فيها الشعب المغربي إلى حمل السلاح للدفاع عن القطر الجزائري، وفي ذلك دلالة عميقة على تصدي الشعر للقضايا الراهنة حتى قبل عصر الإحياء، وفيها أيضا إشارة إلى التلاحم بين مناطق المغرب العربي.

وقد وضع ادريس العمراوي كتابا ضمنه رحلته الى فرنسا سنة 1860 تحت عنوان تحفة الملك العزيز بمملكة باريز يصطلح على تسميتها بالكتابات السفارية، وهي كتابات ترى غيها رغبة لحوحة للأخذ باسباب الحضارة عند الغرب، ما يعني أن القطران تونس والمغرب أخذا الدروس من احتلال الجزائر، فحاولوا أن يتداركوا أحوالهم قبل أن يقتنصهم الاستعمار بالمبادرة باستجلاب أدوات التحدبث.

ويشير الدارسون الى أن المغرب الأقصى كان في عهد سيادة العثمانيين على تونس والجزائر خارجا عن هذه الوحدة، له كيانه الخاص ودولته المستقلة فبينه وبين ما يجد فيها حجاب كثيف، وزاد هذا الحجاب كثافة بعد سقوط الجزائر في قبضة فرنسا سنة 1830 وتونس سنة 1881، فأصبح المغرب في غيبة عما يجري في العالم من تطورات برغم ما يربطه من روابط متينة.[7] واضطرته هذه الأوضاع وخشيته من السياسة الفرنسية المرصودة في الجزائر وبقية البقاع الى غلق الباب دون صلات مع الكيان الغربي، "وقد أضرت به هذه الانطوائية في التفكير والعمل"[8] لكنه عاد الانفتاح التدريجي في القرن العشرين.

وقد اقتصر أمر التطور في المغرب بداية على الشؤون المادية دون الأمور المعنوية، ولم تكن الأوضاع لتخلق جوا أدبيا يختلف عما عهده الناس، ولا لتحدث تحولا فكريا يصب في غير المجرى المألوف، ومن تم فإن الحياة الفكرية والأدبية بقيت على حالها من تمثل الماضي، واحتذاء حذوه سزاءا في المادة أو في القالب، في المعنى أو الأسلوب، والمؤلفون يضعون تآليفهم على غرار الذين من قبلهم، والأدباء يصوغون أدبهم نفس الصياغة التي توارثوه عمن تقدمهم[9]

الشاعر الوزير محمد غريط بدوره وصف أحوال تلمسان بعد أن سرى فيها الدم الخبيث للمستعمر الذي ذكره بمحنة الأندلس:

مالي أرى جفن أهل الغرب وسنانا  من بعد ما أخذ الرومي تلمسانا

كأنهم ما دروا ماذا يريد بهـــــم

عدو دينهم لا نال إمــكانـــــا

ولا على فعله في دفتر وقفـوا

بأهل أندلس يا بيس ما كـــانا

ويومئ الشاعر الى بلاد الأندلس متأثرا بما حدث للجزائريين وخشيته أن يحل بهم ما حل بالسابقين، والشاعر ينحدر أصلا من بلاد الأندلس، وان كان مغربي الوطن والنشأة، "فبيت آل غريط من البيوتات المغربية التي لا يزال يتسلسل منها منذ ثلاثة قرون الأدب الغض والشعر الربي المتين، والمنثور المفصل الذي لا تكاد تقرأ منه سطرا أو سطرين حتى تستحضر الفتح بن خاقان، وتترحم على ابن بسام"[10]

لقد كان للاحتلال وقع شديد على الحياة الأدبية جزائريا فازداد التقليد بل ضعف الشعر وانحسر في الزوايا والقلوب،فطيلة أربعين سنة من الاحتلال لم تشهد البلاد"أي نوع من الإستقرار في السياسة أو في الثقافة أو في الحياة عامة الأمر الذي جعل من هذه المرحلة فترة جذب أدبا وثقافة"[11]

وإذا كان الاستعمار قد أفاد بعض البلاد العربية حيث نقل إليها المطبعة والصحف والمجالس العلمية فإنه في الجزائر على العكس من ذلك تماما إذ لم يأت لنشر حضارة وإنما جاء ليسلب أفكار الشعب ويزور تاريخه ويحطم كيانه ويستغل ثروته، وبذلك تعرضت شخصية الأدب التي ظلت محتفظة بمقوماتها وملامحها إلى هزات عنيفة[12] كادت تفقدها تلك المقومات والملامح

يقول محمد بن الشاهد أثناء غزو المستدمر للجزائر:

أمن صولة الأعداء سور الجزائـــــر

سرى فيك رعب أم ركنت إلى الأسر

لبست سواد الحزن بعد مســـــرة

وعمت بواديك الفتون بلا حصـــــر

رفضت بياض الحق يوما فأصبحت

نواحيك تشكو بالأماني إلى الجـور

ولم تسلم المغرب وتونس بعد احتلال الجزائر من الحماية المباشرة لهذا الاستعمار الذي أقض مضجع السكان وسعى إلى فرض سلطانه ولغته وثقافته وان أرخى يده ببقية القطرين إلا أنه ظل بالجزائر يحكم قبضته بكل قوة وهذا ما جعل هذا القطر وحده دون بقية الأقطار يشهد فترة ركود في بداية الاحتلال إلى غاية الثلث الأول من القرن العشرين[13] بالرغم من أن دول المشرق والمغرب قد تحركت فيها جذوة الأدب والثقافة والتحقت بركب النهضة.

لقد عرف المغرب العربي كما المشرق شاعرا متفردا نفخ في أوداج الشعر العربي القديم فأعاد بهاءه وحيويته وهو شاعر وأمير وقائد دولة سارت باسمه الركبان في مختلف البقاع وهو الأمير عبد القادر الجزائري، فكيف ساهم في حركة الإحياء الشعري.

**2-الإحياء الشعري عند الأمير عبد القادر**[14]

جاء الأمير عبد القادر في فترة شهدت ضعفا أدبيا شبه كلي فاستطاع أن يعيد أمجاد الشعر العربي من خلال نظم شعر يستوحي أفكاره من الراهن، بسيط التعبير أحيانا وجزلا ورصينا أحيانا أخرى لا يصطنع ولا يتخذ الشعر حرفة أو مطية للتكسب، وهذا ما جعل حسن السندوبي وهو ناقد حقق كتاب الجاحظ يصنفه من أعيان البيان في القرن الثالث عشر الهجري مقرونا اسمه بالطهطاوي والشدياق والبستاني واليازجي معتبرا إياه غير متخلف عن الطبقة الأولى من أدباء عصره.

ووصل الأمر بصالح خرفي إلى اعتباره جديرا بريادة النهضة الأدبية الجزائرية "إن لم يكن بأسلوبه الخالي من رونق التجويد، فبمضمونه البطولي الذي ينفرد به في تلك الفترة"[15]

ويتحدث بشير بويجرة بمبالغة قصوى عن ريادة الأمير في إحياء الشعر العربي ليس مغربيا فقط بل يراه أسبق من البارودي في صقل الشعر واستنهاض القصيدة العمودية "فشاعرية الأمير وشعره يمثلان مقارنة مع ما كان متوافرا في عصره نقلة جادة ورؤية واعية بالميكانزم الشعري، وبفاعليته ضمن المنظومة المعرفية البانية لمقومات الشخصية الوطنية والموحية بضرورة ربط البوح الشعري بمسوغات العصر المساوق لهذا البوح"[16]

ويتحرى بويجرة المواطن التي ترفد رأيه في سبق الأمير فيجدها في مواضيع طرقها الأمير فكان سباقا كقصيدة الريف والمدينة، وقصائد أثارت الحوار بين الحضارة الإسلامية والمسيحية وهو ما جعل بويجرة يجزم"على أسبقيته وأحياءه للشعر"[17] فمن قصائده التي تجاوزت العصر الذي أبدعت فيه، وتحدت الظروف والإمكانيات التي كانت متوفرة للأمير في هذا الحقل بي يحتمي جيشي، ما في البداوة من عيب، الباذلون نفوسهم، وعذاب الأسر، وأستاذي الصوفي وغيرها.

ويرى سبق الأمير في الميلاد على البارودي بأكثر من ثلاثة عقود، مؤشرا على الأسبقية مدعوما بالظروف الثقافية والفكرية التي صقلت موهبة البارودي، في حين لم تسعف الحرب الأمير أن يجود شعره، ويبدو الباحث متأثرا بالناقد عبد المعطي حجازي فقد قال في مقال له نشر في الثمانينات "على أن الأمير عبد القادر قد سبق البارودي زمنا ...ومعنى هذا أن النفس الإحيائي في شعر الأمير لم يأت تأثرا بزعيم الإحياء في القرن التاسع عشر، وإنما جاء مباشرة عن طريق النظر في الشعر القديم"[18]

وحجازي بعد ذلك يرجح كفة البارودي الشاعرية فيما يرجح فروسية الأمير، فقد مكنت الأوضاع للأول من أن يصير شاعرا أكثر من فارس فيما حصرت الظروف الأمير في نطاق ضيق من الشعر وغلبت عليه الفروسية.

يقول عبد المعطي حجازي:"حين نقرأ شعر الأمير عبد القادر نتذكر معه البارودي كلاهما فارس وكلاهما شاعر، وان رجحت كفة الأمير في الأولى ورجحت كفة البارودي في الأخرى والشبه لا يقف عند هذا الإطار

الخارجي، بل يتعداه إلى لغة الشاعرين وإلى موضوعاتهما، فقد اتخذ كل منهما الشعر للإفصاح والتعبير لا للزخرفة والتصنيع، وهذه أول خطوة في الخروج عن التقليد، وكل منهما وصف الحرب وعبر عن عواطفه، وذكر أهله وولده، وكل منهما تعرض للأسر والنفي، وكل منهما له في حركة الإحياء مكان مرموق"

لقد حاول بويجرة جاهدا أن يرد على النقاد الذين نعتوا الأمير بالمقلد لعنترة وأمرئ القيس والمتنبي في الوصف والفخر خاصة، وهو جهد محمود لكنه لا يشفع في ترجيح كفة سبق الأمير على البارودي، صحيح أن الأمير أحيا الشعر، لكنه وباعتراف بويجرة لم يرق إلى مكانة البارودي بسبب اختلاف الثقافتين، وتمكن البارودي من اللسان التركي والفارسي وحتى الإنجليزي، فهذه الثقافة التي اكتسبها البارودي قد صقلت شعره وجعلته يحقن نفسه بالمناعة الضرورية ليجعل شعره ترجمان نفسه ويرتفع بالشعر إبداعا وريادة.

والأمير بدوره ساهم في إحياء القصيدة العربية في القطر الجزائري، فكان وصيف البارودي وهو أحسن نعت يمكن نسبته إلى الأمير بدل توظيف العاطفة.

فالتيار الذي شكلَ البارودي بقي بعد رحيل البارودي، أما التيار الذي شكله الأمير فقد رحل معه.

وإبطال هذا الزعم يدفعنا إلى إبطال زعم آخر مرتبط به وهو نسبة بداية النهضة الأدبية إلى عصر الأمير جزائريا نظرا لغياب أدباء حملوا لواء الإحياء والنهضة في عصره وبيئته، وإذا وجدنا كتابا في عصر الأمير فهم ملحقون بديوان الإنشاء وعملهم الميداني إداري محظ لا يمت إلى الأدب بصلة، وينسحب القول على الكاتبين قدور بن رويلة وعلي أبو طالب "فقد مرت فترة طويلة على ظهور الأمير لم تشهد بروز أدباء يمكن أن يحافظوا على استمرار حركة النهضة مما جعل الأمير يبدو بمثابة نقطة يتيمة مضيئة وسط بحر من الظلام والجمود، وبذلك أدخل الأمير في حكم الشاذ الذي يحفظ ولا يقاس عليه"[19]

خلاصة القول في هذا المقام أن الأمير ساهم في الإحياء، فكان دوره كدور حافظ إبراهيم فيما يشبه دور البارودي دور شوقي، الأمير وحافظ شاعري القريحة والبارودي وشوقي شاعري العبقرية.

والأمر الثاني أن النهضة الجزائرية والمغربية عموما تأخرت عن النهضة المشرقية، وأن جماعة الإحياء الشعري لم تظهر إلا في عشرينيات القرن العشرين، وما سبق ذلك فهو تقليد ملحق بعصور المماليك والعثمانيين.

**3-جماعة الإحياء في القرن العشرين:**

عرفت البيئة المغربية نهضة أدبية في ظل استعمار غاشم استضاءت بمعين النهضة المشرقية واقتبست منها، ولعل جهود جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في إصلاح المجتمعات الإسلامية قد لقيت صداها بالمغرب العربي حيث انبرى عشرات المصلحين للحث على تغيير الظروف المزرية في مختلف الميادين، ومنها الميدان الثقافي والأدبي، فظهور المصلحين مهد لظهور طبقة أخذت على عاتقها مهمة إحياء الشعر العربي الرصين ليلائم ذوق العصر، وسعت إلى تطوير اللغة العربية، وإصلاحها مما علق بها من نشاز وتصنع.

فمنذ سنة 1912 شاع التيار السلفي الإصلاحي بالمغرب الأقصى منذ عودة المصلح عبد الله السنوسي من المشرق لمحاربة البدع والدجل، فكان الشعر في خدمة الدعوة الإصلاحية بعد انتشار آراء أقطاب الإصلاح، انعكس الأمر على الشعر بتجدد مواضيعه مع بقاء الشكل تقليديا.

يقول عبد الله القباج[20]:

ليس التمدن ما يلهيك عن عمـــل
يرقي البلاد ويعلي الفكر والنظرا
ليس التمدن بالتزويق مفخـــــرة
إن التمدن ما أولاك مفتخـــــرا
ليس التمدن في عيب الذين مضوا
بل التمدن في إجلال من غبـرا

ولقد سار المغاربة بالفكرة المشرقية الإصلاحية كما نسجوا على منوال الشعر الأندلسي الرقيق، يقول القباج:

آه له من عميد طالما صبـــــــرا
جمر الغضا في حشاه يرتمي شررا
إذ تألق برق من بشائـــــــــره
جاءت زعازعه تزجي له كـــــدرا
وقلت هذا الهوى الممقوت ضيعني
أما الرجيم فلا تسأله كيف جرى
والنفس تأمرني واللهو يبطرنـــــي
والشيب ينذرني يا رب أنت تـرى

وفي مرحلة الثلاثينات من القرن العشرين ظهر شعراء أطلق عليهم اسم الشعراء الشباب اتصلوا بالمدارس المشرقية وخاصة المدرسة الإحيائية، استفادوا من التوجيهات النظرية التي كانت سائدة في المشرق العربي[21]، وسعى هذا التيار المحافظ إلى الإبقاء على التقاليد في بناء اللغة الشعرية حفاظا عليها من ضياع الأصالة العربية الإسلامية، ومن هؤلاء الشعراء محمد الحلوي، علال الفاسي، محمد بن إبراهيم المعروف بشاعر الحمراء، إلى جانب محمد الجزولي

وإن الدين عند الله قـــــول
وفعل لا كرقص الراقصينـــــــا
ولا نهش اللحوم ولا بشذخ
الرؤوس ولا بشرب الماسيخـــــــــنا
وإنَ الذكر ليس بقرع طبـل
ومزمار علا ذقنا لمينـــــــــا
وإنَ الدين من هذا بـــــــراء
وإن الله يخزي المدعيـــــــــنا

ونشطت حركة اتأليف بقوة في المغرب وهي " ان لم تدل على بعث فكري، فهي تدل على حيوية عظيمة في أهل اللم الذين تركوا لنا تراثا حافلا لم تخرج المطبعة بعده الى الآن ولا مقدار ربعه"[22]

ومما يسجل لأدب هذه الفترة أن أدب متين الأسلوب، قوي التعبير، بريئ من التكلف، بعيد ن الضعف الذي يشيع في عهود الانحطاط.. فهو في الثقافة العربية لم يكن متخلفا ولا قاصرا ولكن هذا الأدب بكل اعتبار لا يعدو أن يكون صفحة متممة لتاريخ الأدب المغربي القديم"[23]

لكن الأدب في هذه الفترة في الأقطار الثلاث كان محافظا في سمته، يحي القديم ولا يتجاوز هيكله، والسبب في ذلك يرجعه الدارسون الى المواد الدينية التي كان يتلقاها الطلبة في المراكز التعليمية في ذلك الوقت مما أضفى على التعليم مسحة من الجمود" وجعلت الشعراء المتخرجين في هذه المراكز يصدرون عن فهمهم للشعر، أو نظمهم له، عن هذه الثقافة الدينية التي قلما تعنى بالناحية الجمالية في الشعر، ولا تهتم بالشكل اهتمامها بالمضمون"[24]

ولم يختلف حال الحركة الإحيائية في تونس عن المغرب، فقد بزغ الإصلاح في ظل الجهود المكثفة التي قام بها جامع الزيتونة الذي كان حلقة علمية ومعرفية لا تقل مكانة عن الأزهر المصري، وقد زار محمد عبده تونس مرتين سنتي 1885/1903 فزرع في هذا الموطن الهاجس الإصلاحي، فظهرت حركة لإصلاح مناهج التدريس، ووافق ذلك ظهور حركة شعرية في تونس منطلقها الزيتونة[25]، كما سبق أن وضع خير الدين التونسي(1810.1899) من خلال كتابه أقوم المسالك في أحوال الممالك لبنة اصلاح مبكرة لمواجهة التحدي الأروبي" فسارعت النخبة الى مشايعة آراءه والتحمس لأفكاره، فوجد مشروعه طريقة سريعا الى الانطلاق والاختبار والمبادرات والاصلاح بإقامة المؤسسات الثقافية والفكرية كالمدرسة الصادقية، وباصلاح نظم التعليم بالزيتونة، واصدار الجرائد كجريدة الرائد التونسي التي كان يشرف عليها خير الدين"[26]

ومن أبرز شعراء الإحياء بتونس محمد الخضر حسين[27] الذي وصل إلى درجة مشيخة الأزهر، فقد أحسَ بتعرض الهوية الإسلامية للخطر بعد فرض الحماية على تونس سنة 1881 فعمل على تطوير الشعر العربي بتأسيس مجلة السعادة سنة1904 ،ونظم شعرا سمَاه عصريا ذو غرض إصلاحي متجاوزا أغراض الشعر القديمة.

يقول من قصيدة تحت عنوان حياة اللغة العربية:

لغة أودع في أصدافهـــــــــا
من قوانين الهدى أبهـــــى درر
لغة نهصر من أغصانهـــــــــا
زهر آداب وأخلاق غـــــــرر
نفروا منهـا لـــــــــواذا وإذا
جف طبع المرء لم تغن النـــذر
ما زكا تفاح لبنان علـــــــــى
حسك السعدان في ذوق مـــذر
هكذا في نظر الأعشى استوى
زهر روض وهشيم المحتضـــر

ولابد أن الشاعر التونسي قد اقتفى أثر حافظ إبراهيم في قصيدته الشهيرة التي دافع بها عن اللغة العربية ومطلعها:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي  ونوديت قومي فاحتبست حياتي

والنغمة نفسها تكررت لدى الشاعر المغربي محمد المختار السوسي[28]

بأي خطاب أم بأي عظـــات  أوجه وجه الشعب شطر لغاتي

وهي ذاتها أيضا في الشعر الجزائري دفاع مستميت عن اللغة العربية يقتبس من آراء المشارقة ويحتذي شعراء المشرق:

يا أمة ضيعت مجدا لها سلفا  طال النداء بنا لو كان يجدينا

هاهي أم اللغى تنعى لمصرعها

هاهي ألفاظها تبكي وتبكينا

خلطتموها بألفاظ مشوهـــة

ولم تقيموا لها يوما موازيـــنا

صارت شبيهة بأثواب مرقعة

تضم من خرق طمر ملاييينا

لقد اتفق الكثير من النقاد الجزائريين ومنهم صالح خرفي الركيبي، سعد الله وعبد الملك مرتاض على أن النهضة الثقافية والإصلاحية في الجزائر، وكذا الإحياء الأدبي وليد التأثير المشرقي، فالإرهاصات الإصلاحية احتضنتها عوامل وافدة من الهجرة إلى المشرق أو التلقي منه[29] ، فقد شد الرحال في هذه الفترة رواد الإصلاح الديني في الجزائر التي زارها في هذه الفترة دعاة الإصلاح الديني في المشرق، فالإمام عبده زار الجزائر في سنة 1903، وانعقد بها مؤتمر المستشرقين سنة 1905 حضره رواد الإصلاح العربي، إلى جانب جامع الزيتونة الذي أسهم بقسطه فكان المدرسة الأولى لرجال الإصلاح في الجزائر.

ومثلما كان رواد الإصلاح طرفا في إنعاش الحركة الشعرية واللغوية كانت صحفهم التي تتسرب إلينا حلقة الوصل بالأدب واللغة العربية الرصينة في ظل شح المصادر وحجر المستعمر على العمل الصحفي محليا، وهذا ما جعل الهادي السنوسي يعتبر الهلال والمقتطف والمنار على الخصوص "رسل النهضة الأدبية إلى الشمال الإفريقي"[30]

لقد كان المشرق العربي مؤثرا حيويا في اتجاه الأدب الجزائري كما كان مؤثرا حيويا في الاتجاهات السياسية والإصلاحية وقد تطور هذا التأثير بحسب الفرص التي أتيحت له، فكان في أواخر القرن19 ضيقا محدودا، وكان في أوائل هذا القرن أكثر اتساعا وأشد حرارة ثم أصبح قدوة بارزة للأغلبية الساحقة من الجزائريين منذ ظهور الدعوة الإصلاحية ومؤيديها من الطوائف الأخرى.[31]

فالمدرسة الخارجية التي تأثر بها الشعر الجزائري هي مدرسة شوقي وحافظ والرصافي وهي مدرسة زعماء الإصلاح إن جاز التعبير أو التي يسميها العقاد المدرسة الوسطى، فهؤلاء الشعراء ساروا مع النهضة العربية الصاعدة، وعبروا عن أزمات ويقظة الشعب العربي واتخذوا من الواقع العربي الإسلامي موضوعات خصبة،

ومن هنا نستطيع القول بأن هذه المدرسة الشرقية قد انتقلت إلى الجزائر مع فارق واحد هو أن شعراء الجزائر قد ألبسوها ثوبا محليا وصبغوها بألوان بلادهم ولعل محمد العيد وأحمد سحنون ومفدي زكرياء ومحمد اللقاني والغزالي وأمين العمودي وسعيد الزاهري، والهادي السنوسي أحسن من يمثل هذه المدرسة في الجزائر.[32]

والذي يعنينا في هذا المقام أن شعر الإحياء الجزائري انطلق في الربع الأول من القرن العشرين ونضج كثيرا بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين، وعندما تفتقت قريحة محمد العيد آل خليفة بالشعر حتى بلغ من النضج والقدرة على تمثل إحساسات الشعب ووعى الأهداف الوطنية ما جعله بحق شاعر الشعب.

وقد تركت العناية بالقرآن الكريم بصمات واضحة في أساليب الأدباء الاصلاحيين في أقطار المغرب الثلاث وبالأخص في الجزائر، فقد طبعتها بطابع القوة والمتانة، وأكستبها جزالة في التعبير، وأسرا في التركيب، وهو أمر شهد به فحول الكتاب في المشرق العربي وأثار اعجاب أمثال الدكتور زكي مبارك، والأمير شكيب أرسلان، وجورج حداد، وأحمد زكي أبو شادي، ونلمس أثر القرآن الكريم في الشعر الجزائري بصفة جلية في التعبير والتصوير معا"[33]

ويمكن أن نركز على شاعرين في هذا المقام نجد لديهما ما تفرق في بقية الشعراء الجزائريين على كثرتهم في العصر الحديث بعد ازدهار نشاط جمعية العلماء، وهما محمد العيد آل خليفة وأحمد سحنون.

فقد أغنى محمد العيد[34] الشعر الجزائري، واستطاع أن يعبر عن آمال الجزائريين وآلامهم، وبقي وفيا لاتجاهه المحافظ لم يبرحه حتى مع ظهور تيارات وافدة، والشأن نفسه بالنسبة لأحمد سحنون الذي بقي محافظا حتى بعد استقلال الجزائر، فقد تجسمت بين هذين الرجلين تعاليم المدرسة وترسمت خطاها.

ولم يكفي محمد العيد أن يكون محافظا كلاسيكيا في النظم فقط بل كان يرثي أيضا شعراء الأحياء كمرثيته لأحمد شوقي وحافظ إبراهيم:

يقول محمد العيد:

قم عز مصر وعز الشرق أقطـــــارا
ففحل مصر خبا كالنجم وانهار
خطب جرى في ضفاف النيل زلزلة
وثار ملء حواء الشرق اعصارا
يا ويح مصر خلت من"حافظ"وخلا
في الهامدين كأن لم يثوها دارا
يا شاعرا حن بالفصحى ورن مدى
كالطير زقزقة والعود أوتـــــارا[35]

وله شعر في الإخوانيات وشعر في اللزوميات مما يجعله شاعرا محافظا بامتياز، فقد طرق أغراض الشعر القديم واحتذى بالشعراء العباسيين في اللزوميات

يقول في بعضها:

فأعرض عن الدنيا بوجهك عابسا

وان كان طلقا وجهها غير عابس
جفاها رهين المحبسين وعافهـا
فكيف يواليها رهين المحابـــس

ولقد وصف البشير الإبراهيمي شعر محمد العيد في مقدمة ديوانه بإشراق الديباجة ومتانة التركيب وفحولة الأسلوب وفخامة الألفاظ "لبق في تصريف الألفاظ وتنزيلها في مواضعها بصير بدقائق استعمالات البلغاء، فقيه محقق في مفردات اللغة علما وعملا وقاف عند حدود القواعد العلمية، محترم للأوضاع الصحيحة في علوم اللغة كلها..بارعالصنعة في الجناس والطباق وإرسال المثل والترصيع بالنكت الأدبية والقصص التاريخية"[36]

ويبدو أن الإبراهيمي كان يصف شعر محمد العيد، فإذا به يذكر معالم مدرسته المحافظة ومميزات التيار الذي ظل مسيطرا على الواقع الشعري الجزائري لعقود طويلة.

والأديب شكيب أرسلان بدوره شبهه بالبهاء زهير مشيرا إلى أن وجود محمد العيد يمكن الجزائر من تدارك تأخرها الملحوظ في ميدان الأدب عن الأقطار العربية المتبقية

ونجد الشاعر أحمد سحنون[37] كذلك يسند هذا التيار بشعره ويعكس آيات المحافظة على البناء العمودي للقصيدة وعلى التعابير الدينية والإصلاحية والطابع الجزل والرصين كل شيئ نسيته في بـــــــلادي

وتلاشت أطيافه من فـــــــؤادي
غير ذكراك فهي تكمن في قلبي
كمون اللظى بقلب الرمـــــــــاد
والشذا في الزهور والحـــــــب
في الأحشاء والكبرياء في الأطواد

الغريب في أمر مدرسة الإحياء بالجزائر أنها بقيت مسيطرة على الأوضاع الأدبية رغم تخلف صنوتها بالمشرق، رسخت بقوالبها وأساليبها "وأنصارها لا يكتفون بذلك بل يقفون في وجه كل من يحاول الخلاص من تلك القيود"[38]

والأمر الثاني الذي يمكن ملاحظته في هذا السياق أن الشعر الجزائري في ظل الإحياء غلب عليه الطابع الديني كما خيم عليه طابع الحزن، وكان تعبير الشعراء يعتمد الجمل الجاهزة، والصور المستمدة من الذاكرة، مما كان له أثر سلبي في عرقلة التطور الفني لدى شعراء الاتجاه التقليدي الذي لم يخضع لاستخدام لغة معاصرة أو صور طريفة[39]، و وهي أهم مواصفات المدرسة الإحيائية الجزائرية ناهيك عن الأوصاف العامة التي تشترك فيها المدرستان.

**الخلاصة:**

ومما سبق نخلص الى ما يلي:

1.أن الأقطار الثلاثة قد عرفت حركة الإحياء مسنودة الى حركة الاصلاح الديني والسياسي والثقافي فغلب عليها في الشعر الاهتمام بالمواضيع الدينية والاجتماعية.

2.كادت حركة إحياء النموذج أن تستقل بذاتها انطلاقا من الجزائر لتعم بقية الاقطار المغربية لولا أن موانع حالت دون تحقق ذلك يأتي على رأسها الاستعمار الفرنسي، وعدم استتباع حركة الامير الاحيائية للشعر بعد انقطاعها مع نفيه.

3. بقيت حركة الاحياء المغاربية مدينة في ظهورها وانتشارها الى حركة الاحياء المشرقية، فكانت بهذا الوجه تقليدا يحاكي تقليدا اذا ما وضعنا في الحسبان تأثر الحركة المشرقية بالتراث، لكنها سرعان ما استقلت بنفسها في حدود ما وفرته البيئة الثقافية المغاربية.

**الهوامش:**

[1] أحمد الطريسي أعراب: تطور مفهوم الشعر المغربي في مسيرة مئة سنة، معجم البابطين ص:03

[2] المرجع نفسه،ص:04.

[3]عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث،ج1،دار الكتاب العربي،ط1، 2009،ص:13.

[4] مقال يونس لشهب،موقع ديوان العرب،www.diwanalarab.com 2009

[5] العربي بن محمد السايح ولد سنة 1813 شيخ طريقة ينتمي إلى التيجانية توفي سنة 1891

[6] محمد بن دريس العمراوي شاعر وأديب 1794-1847.

[7] عبد الله كنون: أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب،ص:17

[8] المرجع نفسه،ص:18

[9] المرجع نفسه،ص25

[10] محمد بن عباس القباج: الأدب العربي في المغرب الأقصى،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 2005 ص9

[11]عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري ،ص20.

[12] أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث،دار الآداب،ط2، 1977،ص:21

[13] عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث،ص13.

[14] عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى المعروف باسم الأمير عبد القادر ولد يوم الجمعة 23رجب الموافق لماي 1807 بالقيطنة بمعسكر، علوي النسب حفظ القرآن صغيرا وكان طموحه أن يصير مرابطا كوالده قاد حملة الجهاد ضد فرنسا 17 سنة ثم استسلم ونفي الى أمبواز بفرنسا ثم الى دمشق بسوريا توفي في 24 ماي 1883 بدمشق عن عمر 76سنة، من مؤلفاته ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، المواقف كتاب في التصوف توفي في 24 ماي 1883 بدمشق عن عمر 76 سنة.

[15] عمار بن زايد:النقد الأدبي الجزائري الحديث،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1999،ص:12.

[16] محمد بشير بويجرة: الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، دار القدس العربي،ط3،ص:177.

[17] المرجع السابق،ص:191.

[18] لماذا نتجاهل الشعر الجزائري، جريدة الشرق الاوسط10-05-1983ص13.

[19]عمار بن زايد:النقد الأدبي الجزائري الحديث،ص13.

[20] عبد الله القباج شاعر مغربي ولد سنة 1916 توفي سنة 1979 اتسم أسلوبه بالدقة والجزالة ورقة الصورة الشعرية وطرق العديد من الأغراض في الأدب المغربي والأندلسي

[21]أحمد الطريسي أعراب: تطور مفهوم الشعر المغربي في مسيرة مئة سنة، معجم البابطين،ص:05

[22] عبد الله كنون:: أحاديث عن الأدب العربي المغربي الحديث،ص26.

[23] المرجع نفسه،ص:28

[24] محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية، 1925.1975، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2006،ص:40

[25] محمد علي آذرشب مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث مجلد 05 عدد17، 1429-2008.

[26] يوسف ناوري، الشعر الحديث في المغرب العربي،ج1،ط1، دار توبقال للنشر، المغرب 2006، ص:51.

[27] محمد الخضر حسين مصلح وشاعر 1876-1958 من أصول جزائرية أنشأ بتونس أول مجلة سماها السعادة العظمى ، بسبب نشاطه الجمعوي عاش بمصر هاربا له ديوان شعر خواطر الحياة.

[28] محمد مختار السوسي الملقب برضا الله 1898-1963 مؤرخ وشاعر من الداعين الى كتابة التاريخ الإسلامي والعودة الى التراث.

[29] صالح خرفي: الشعر الجزائري،ص:14

[30] المرجع نفسه،ص15.

[31]أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث،ص24.

[32] المرجع نفسه،ص54.

[33]محمدناصر: الشعرالجزائريالحديث،اتجاهاتهوخصائصهالفنية، 1925.1975، ص:44

[34] ولد في 16 جمادى الآخر1322 الموافق ل28 أوت 1904 عمل معلما بمدرسة جمعية الشبيبة الاسلامية سنة 1927 لقبه ابن باديس أمير شعراء الجزائر سجن سنة 1955 ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية ببسكرة توفي في 07 رمضان 1399 -31 جويلية1979

[35] ديوان محمد العيد آل خليفة،دار الهدى عين مليلة،ص411

[36] تقديم ديوان محمد العيد،ص7

[37] ولد أحمد سحنون سنة 1907 ببسكرة يتيم الأم ، تعلم القرآن على يد أبيه ، وانضم الى جمعية العلماء المسلمين، حكم عليه بالإعدام في عهد الاستعمار ثم أطلق سراحه بعد 3 سنوات لأسباب صحية تعرض لمحاولة اغتيال في التسعينات ثم لزم بيته معتكفا، توفي سنة 2003.

[38] سعد الله:دراسات في الأدب الجزائري الحديث،ص"55

[39]محمدناصر: الشعرالجزائريالحديث،اتجاهاتهوخصائصهالفنية، 1925.1975، ص: 45